التوكل على الله في الأزمات

الشيخ محمد صالح المنجد

إن التوكل على الله سبحانه وتعالى هو المخرج من كل أزمة يعيشها المسلم في حياته، فمن توكل على الله كفاه الله ما أهمه، ومن توكل على الله علم أن كل ما أصابه من الله، فهو بذلك يزداد إيماناً، وثقة بالله عزوجل، لكن لا يعني التوكل على الله عدم الأخذ بالأسباب، وإنما يجب على المسلم أن يأخذ بالأسباب الشرعية، التي أباحها الله سبحانه وتعالى لنا، مع التوكل على الله فذلك هو المخرج من الأزمات.

العبادة والاستعانة لله تعالى وحده.

أقسام الناس في التوكل على الله.

أهمية التوكل في وقت الأزمات.

من معاني التوكل الأخذ بالأسباب الشرعية.

قصة فلم انتشر في بعض البلدان العربية والتنبيه على ذلك.

الأسباب من قدر الله.

من فوائد التوكل أن الله يكفيك همك وتزداد به إيماناً.

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ}(سورة آل عمران102).

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا}(سورة النساء1).

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا}(سورة الأحزاب70-71).

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

العبادة والاستعانة لله وحده.

أيها الأخوة:

قال الله في كتابه العزيز: {الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ * مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}(سورة الفاتحة1-4). جمع الدين في هذه الآية، {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} وابتلى عباده في عبادته، والاستعانة به، من الذي يعبده حق عبادته، ومن الذي يستعين به حق الاستعانة.

أيها الأخوة:

لقد أُتي أكثر الناس من هذه الجهة، وقد جاء النقص، ودخل على الناس من هذه الجهة، جهة النقص في العبادة، وجهة النقص في الاستعانة، ولذلك فأنت تراهم إذا نزل بهم أمر، أو حلت بهم كارثة، أو أحاطت بهم مصيبة، فإنهم يفقدون العبودية لله، أو جزء منها، ويفقدون الاستعانة بالله عز وجل، والتوكل عليه، وتفويض الأمور إليه، فمنهم من يسقط في يده، ولا يستطيع حولاً، ولا قوة بشرية، فضلاً عن الاستعانة بحول الله، وقوت الله أصلاً.

أيها الأخوة:

لقد فقد كثير من الناس بعض معاني التوكل على الله، وتفويض الأمور إليه، واللجوء إليه عند الشدائد، فقدوا معاني عظيمة، ولذلك تراهم –وفي هذه الأيام بالذات– يتخبطون، ويضطربون، ويخافون، ويجبنون، ولا يستطيعون لأمورهم تصريفاً، ولا حتى الأخذ بالأسباب الشرعية الأخذ الصحيح، ولذلك فأنت ترى هؤلاء يموجون، ويضطربون، كأنهم مساكين، لا يستطيعون أن ينظروا إلى الأمام، ولا إلى الورى.

أيها الأخوة:

إن هذا الخبط، وإن هذا الاضطراب، إنما نتيجته قطعاً، فقدان التوكل على الله عز وجل، وتفويض الأمور إليه،

أيها الأخوة:

إذا كنا مؤمنين حقا فهل عرفنا كيف نتوكل على الله الذي قال لنا: {وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}(سورة المائدة23). إذا كنا مؤمنين حقاً، فهل علمنا يقينا أننا إذا توكلنا على الله، بأن الله يحفظنا، وأن الله يعيننا، وأن الله ينصرنا، وأن الله يدرأ عنا، وأن الله يبعد الشرور عنا.

أيها الأخوة:

{وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ}(سورة الطلاق3). فهو يكفيه {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللّهُ} يكفيك الله {وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}(سورة الأنفال64). يعني يكفيك، ويكفي من اتبعك من المؤمنين، الله عز وجل كافيك، وكافي أتباعك يا محمد صلى الله عليه وسلم، {وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ}(سورة يونس84). {فَقَالُواْ عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا}(سورة يونس85). من الذي يحفظ؟ الله، ومن الذي ينصر؟ الله، {وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا}(سورة الأحزاب3). لما ألقي إبراهيم في النار، وفقد الأخذ بأي سبب من أسباب الدنيا، لم تنقطع صلته بالله، لا من قبل، ولا من بعد، ولا أثناء الرمي، فقال: حسبنا الله ونعم الوكيل، {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}(سورة آل عمران173). قال ابن عباس: "حسبنا الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم حين ألقي في النار، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا له: "إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل"[رواه البخاري4563]. وكان صلى الله عليه وسلم يقول كما في دعاء الصحيحين: ((اللهم لك أسلمت وبك أمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت))[رواه البخاري1120ومسلم769]. الحديث، إذن كان لا يفتر أن يتوكل على الله في جميع أموره، وأن يذكر نفسه بأن يذكر هذه العبارة أنه لا يزال متوكلاً على الله.

أيها الأخوة:

وأنتم تسمعون الآن الأنباء، والأخبار، والتحليلات السياسية، وقول من يقول: إن موعد الحرب قد اقترب، وغير ذلك من الأقوال، لا بد أن تذكروا، ولا بد أن نذكر جميعاً، أن الله سبحانه وتعالى هو المهيمن، وأنه هو الجبار، وأنه هو القوي، وأنه مالك الملك، وأنه مصرف الأمور، لو أراد أن يقع شيء لوقع، ولو أراد أن لا يقع شيء لما وقع أبداً، وإن فعل الفاعلون ما فعلوا، فإذن العبد الذي يعلم هذه الحقيقة هو الذي لا يضطرب، ولا يجبن، ولا يهلع، وإنما يتوكل على الله، ويأخذ بالأسباب الأخذ الشرعي، الذي لا يتناقض مع التوحيد.

أيها الأخوة:

كان صلى الله عليه وسلم إذا خرج من بيته أبسط الأمور يقول: ((بسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله)) يقال له– لمن قال هذه العبارة – ((هديت، وكفيت، ووقيت))[رواه أبو داوود5095]. (هديت، ووقيت) وقيت من كل شر، (وكفيت) كفيت كل عدو.

أقسام الناس في التوكل على الله.

أيها الأخوة:

إن التوكل على الله نصف الدين، والناس في التوكل على الله أقسام: فمنهم من يتوكل على الله، ومنهم من يتوكل على غير الله، والذين يتوكلون على الله أقسام: فمنهم من يتوكل عليه في الإيمان، ونصرة الدين، وإعلاء كلمة الله عز وجل، وجهاد الأعداء، وعبادته سبحانه وتعالى، هؤلاء الذين يتوكلون عليه في نصرة الدين، وقمع المبتدعين، وزيادة الإيمان، والعلم، ومصالح المسلمين، هؤلاء هم الرسل، وورثة الرسل، وأتباعهم إلى يوم الدين، ومن الناس من يتوكل على الله في أمور من الدنيا يناالها، من رزق، أو عافية، أو خلاص من عدو، أو حفظ ولد، وهذا جائز ولا شك، بل هو واجب من ناحية أصله، وهو التوكل على الله المباح من جهة المتعلق به، وهو الخلاص من عدو، أو طلب غنيمة، أو رزق، أو شفاء من مرض، أو حفظ ولد، و نجاة إنسان مشرف على الخطر، و نحو ذلك، يجب التوكل على الله فيها، ولكن من الناس من يجعل كل همه في التوكل في الأشياء الدنيوية، نحن نتكلم الآن في المتوكلين على الله، الذين يجعلون همهم في التوكل على الله في الأشياء الدنيوية، كسد جوع، أو الخلاص من وجع، وهؤلاء الذين يتوكلون فلينظروا إلى ما توكلوا به، من سد جوع يحصل بنصف رغيف، أو ذهاب وجع يحصل بأقل مداواة، فلينظروا أن لا يحبسوا توكلهم في هذه الأشياء فقط، يجب أن يتوكلوا على الله فيها، ولكن لا يصلح أن يحبسوا توكلهم فيها فقط، وينسوا التوكل على الله في الإيمان، ينسوا التوكل على الله في العبادات، ينسوا التوكل على الله في طلب العلم، ينسوا التوكل على الله في الجهاد لإعلاء كلمت الله، ينسوا التوكل على الله في نشر الدين، هذه المتعلقات التي غفل أكثر الناس عنها لانشغالهم بالدنيا.

أيها الأخوة:

لا بد أن نتوكل على الله في الأمور كلها، ولكن ينبغي أن تكون مجالات التوكل عامة عندنا، لتشمل العبادات، والطاعات، والمباحات، ومن صدق في توكله فلا بد أن يحصل الشيء الذي طلبه، والتوكل عمل بالقلب، هو

عبارة عن اعتقاد، أو هو اعتقاد أن الله يكفيك من كل شيء، والرضا بالله وكيلا، والانخلاع من الاعتماد على الحول، والقوة الشخصية، سواء قوتك أنت، أو قوة الآخرين، والاعتقاد أن الله يفعل ما يشاء، وأنه إذا أراد شيء فلا بد أن يكون، وإذا لم يرد فلا يمكن أن يحدث، قطع القلب من التعلق بغير الله، والتسليم الكامل لله، هذه من معاني التوكل، عدم الركون إلى الأسباب الدنيوية، هذه من معاني التوكل، أن يكون المتوكل على الله لا يعتمد على شيء من الدنيا، يبذل الأسباب لكن لا يعتمد عليها، يبذل الأسباب، ويعتمد على الله، رسولكم صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر، عمل من الأسباب ما يكون، خرج، وتجهز، ووصل الآبار، وسدوا بعضها، وابقوا واحداً، ونظم، وعمل، ومع ذلك قام يدعوا الله، ويناشده حتى سقط برده عن كتفيه صلى الله عليه وسلم، ملتجئ إلى الله تماماً، ولو تأملت دعائه عليه الصلاة والسلام في هذا الأمر، في غزوة بدر لعلمت أنه لم يكن للتوكل على الأسباب في قلبه نصيباً، وتأمل في دعاء الاستخارة: ((اللهم إن أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب))[رواه البخاري1166].

أيها الإخوة:

أما الذين يتوكلون على غير الله، وهم القسم الثاني، أو يشركون مع الله في التوكل، فإن أمرهم خطير جداً، فإن أمرهم خطير للغاية؛ لأن التوحيد قد انشرخ بالتوكل على غير الله، والاعتماد على غير الله، وتفويض الأمور إلى غير الله، من فوض أموره إلى غير الله خاب، وخسر، من فوض أموره إلى غير الله، فلا بد أن يعاجله الله بالخسران في الدنيا قبل الآخرة.

أيها الأخوة:

فرغوا قلوبكم من الاعتماد على كل قوة إلا قوة العزيز الحكيم،

أيها الأخوة: لا تتعلقوا بأي شيء من قوى الدنيا أبداً، وتعلقوا فقط بقوة الله العزيز الحكيم، إن الذين يتوكلون على قوة غير قوة الله، ويعتمدون على قوة غير قوة الله، خاسرون دائماً وأبداً؛ لأن الله هو القوي، وأكبر بشر في الأرض، وأكبر قوة في الأرض، لا يملكون لأنفسهم نفعاً، ولا ضراً، والدليل قوله تعالى: {فَادْرَؤُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}(سورة آل عمران168). أكبر قوة في الأرض {لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا}(سورة الفرقان3). فليدرءوا عن أنفسهم الموت إن كانوا صادقين، فليدرءوا عن أنفسهم الموت.

يا أيها الموحدون: يا عباد الله:

تأملوا نزلاً من العزيز الحكيم، فليدرؤوا عن أنفسهم الموت إن كانوا صادقين، فلماذا نتوكل على غير الله؟ لا يمكن، نتوكل على الله، ونبذل الأسباب، نقول هذا الكلام وبقية الكلام في التوكل سيأتي إن شاء الله في الخطب القادمة؛ لأن هذا الموضوع في هذا الوقت بالذات حساس جداً، موضوع التوكل، وتحقيق التوحيد، الآن في غمرة خوف الناس، وهلعهم من الأمور، والأخطار والحروب، وما يكون، وما يتوقع أن يكون، إن الناس قد هاجوا وماجوا ولا يسكنهم –والله– إلا التوحيد، ولا يسكن الناس –والله– في أوقات الأزمات إلا التوحيد، ولا يطمئن

الناس –والله– في أوقات الأزمات إلا تحقيق التوكل على الله والأخذ بالأسباب، أما أن يكونوا هكذا في خوف، وهرج، ومرج، لا يستطيعون حتى أن يتعاملوا مع الأمور بواقعية، وتعقل، ولذلك يفعلون من الأمور المضحكة ما يجعل العاقل –فعلاً– محتاراً في أمر الناس هؤلاء، أهم مسلمون أم لا؟ أهم صادقين مع الله أم لا؟ ومنهم من يقول لك: أنا سافرت، أو سأسافر بأهلي، لا خوفاً من الحرب، لا، لا، لا، لمجرد أن عندي إجازة، فلماذا تهرب من الواقع؟ ولماذا تضحك على نفسك، أو على غيرك؟ عندك أسباب دنيوية أبذلها، وتوكل على الله، عندك أشياء حقيقية، مخاطر حقيقة، إذا لم تستطع لها دفعاً، انأ عنها بنفسك، وابتعد عنها بنفسك، ولم يحرم الله هذا الأمر، ولم يحرم الله الابتعاد عن الخطر أبداً، ولكن المشكلة أيها الأخوة، أن الناس وهم يبتعدون عن الخطر على قسمين: منهم من يبتعد؛ لأن الابتعاد عبادة، ويتوكل على الله، ويعلم أنه ربما يأتيه قدر الله في طريقه، وهو مبتعد عن الأخطار يأتيه قدر الله، ويأتيه أمر الله، وتأتيه منيته، يعلم تماماً هذا العلم، ومنهم من يظن بهلعه، وخوفه، أنه سيفر من قضاء الله، وقدره، وأين تهرب من قضاء الله وقدره؟ وهل في منطقة في العالم ليست تحت حكم الله؟ وليست تحت إرادة الله، ومشيئته؟ لا يوجد أيها الأخوة، ثم أضف إلى ذلك أن الذين لا يتوكلون على الله، ولا يعتمدون عليه، أول شيء يخافون من أتفه الأشياء، ثاني شيء يضطربون من سماع الكلام المنشور، والمسموع، وخصوصاً من الإذاعات الخارجية، هم المرجفون في الأرض في هذه الأيام، يخوفون الناس، والناس مساكين، وهؤلاء يضعون مواعيد، والناس عملهم أن يخافوا، سبحان الله العظيم، ألم يأتيكم النبأ في الفترة الماضية لما قال الناس: ستقع حرب، ستقع حرب، ولم يقع شيء، سيكون في يوم كذا، ولم يقع شيء، فإذن أيها الأخوة: نحن ناس موحدون، نعتمد على الله، ونأخذ بالأسباب، وإذا رأينا خطراً واقعاً، وشيئاً منظوراً، وأمراً موثوقاً، ابتعدنا عنه والحمد لله، ولم يحرم الله الابتعاد عن الخطر الواقع، ولكن المشكلة وأوجه كلامي إلى الناس الذين يعتمدون على أخبار المنافقين، ويتصرفون بناءً عليها، يعتمدون على أخبار المنافقين، والمرجفين، ويتصرفون بناءً عليها، لا بناءً على الأشياء المحسوسة، الملموسة، الموثوقة، ونحن نسأل الله –من كل قلوبنا أيها الأخوة– أن يحفظنا، وأن يحفظ أولادنا، وبيوتنا، وبلدنا، وأن يدرأ الخطر عنا، وعن جميع المسلمين، ويجب أن نلجأ إلى الله، وأن نتوكل عليه، في حفظ بلدنا، وحفظ مجتمعنا، وأن لا نكون من المرجفين ونساعد الأعداء في تشقيق الصف، وزعزعة الأمن، والاضطراب، هذا مجتمعكم، وهذه مسؤوليتكم في المحافظة عليه، فكونوا عباد الله إخواناً، وكونوا عباد الله الموحدين، المتوكلين عليه، وكونوا عباد الله المتعقلين ،الذين يتصرفون بالحكمة، ويتصرفون بما يناسب الوضع والحال.

نسأل الله أن يقينا وإياكم كل شر، وأن يدفع عنا وعنكم كل مكروه وسوء، إنه هو الحفيظ، القائم على كل نفس بما كسبت.

أيها الأخوة:

الكلام في التوكل طويل، لكن نذكّر أنفسنا بأن الذي يتوكل على غير الله، إنما هو شحاذ يسأل شحاذاً، الذي يتوكل على غير الله، شحاذ يسأل شحاذاً، والفرق أحياناً بين المتوكل، والمتواكل شعرة، ويكون أحياناً الفرق

دقيقا بين الذي يخاف خوفا طبيعيا أجازته الشريعة، وبين الذي يخاف خوفاً غير طبيعي لا يجوز في الشريعة، أو يخاف من بشر كخوفه من الله، أو أشد.

أهمية التوكل في وقت الأزمات.

أيها الأخوة:

إن هذا الموضوع له أهمية كبرى، خصوصا في هذا الوقت العصيب، الأخطار فيه محدقة، والحوادث تترى، والمفاجئات قد تكون كثيرة، ولكن عباد الله الذين قال الله في وصفهم: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}(سورة الأنفال2). هؤلاء العباد يخافون من الله لا من غيره، ويتوكلون على الله لا على سواه، ويتوكلون على الله لا على غيره سبحانه وتعالى، هؤلاء العباد الذين امتلأت قلوبهم خوفاً من الله، ومحبةً له، وخضوعاً له، يذكرون الله سبحانه وتعالى قياماً، وقعوداً، وعلى جنوبهم، هؤلاء الذين لهم الأمن وهم مهتدون، هؤلاء الذين لا ترهبهم قوى الأرض، ولا يؤيسهم سوء الأحداث، والأمور مهما بلغت من السوء، هؤلاء المعتصمون بحبل الله، المعتمدون على الله، الذين فوضوا أمورهم إليه، إن الله يحفظهم، ويدافع عنهم، ويكفيهم شرور أعدائهم.

أيها الأخوة:

لما نقص التوكل على الله خفنا، ولما قلَّ تفويض الأمور إليه ارتعدت فرائصنا، ولما تركنا الاعتصام بالله، وبذكره، صرنا نخشى من كل يوم يأتي خشية ليست طبيعية، تدل على انخلاع الفؤاد، وعلى عدم التبصر بالطرق الصحيحة، والأسباب الشرعية اللازم اتخاذها.

أيها الأخوة:

إن رسولنا صلى الله عليه وسلم اسمه المتوكل كما في التوراة، وجاء في الحديث الصحيح، والله يحب المتوكلين، {وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا}(سورة الطلاق2). {وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا}(سورة الطلاق4). ثم قال: {وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ}(سورة الطلاق3). في سورة الطلاق، المخرج بتقوى الله، وتيسير الأمور بتقوى الله.

يا أيها الناس: ألا تستغربون عندما تجتمع الغيوم في السماء متلبدة، وكأنها تحمل الأمطار الغزيرة، ثم تتفرق الغيوم، ولا ينزل علينا شيء، ما السبب؟ أليست ذنوبنا، ومعاصينا؟ وهذه الحالة حالتنا لا نستحق بها نزول مطر، ولو نزل مطر فلأجل هذه البهائم التي ترعى في الصحراء، ولو نزل مطر فهو رحمة من الله بهؤلاء المتوكلين عليه، أو هؤلاء الأطفال الرضع، والبهائم الرتع.

أيها الأخوة:

نحتاج في هذا الوقت العصيب إلى مزيد من التقوى، والإقلاع عن الذنوب، والتوكل على الله عز وجل، {وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا}(سورة الطلاق2). أنت تقول: الأزمة مشتدة، والحرب قريبة، و... و... إلى آخر الكلام،

وأقول لك: {وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا}(سورة الطلاق2). {وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا}(سورة الطلاق4). {وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ}(سورة الطلاق3). هذا هو الجواب فقط على ما ينبغي أن نعمله.

لقد ذكرنا للتوكل معاني كثيرة، ونقول أيها الأخوة: إن التوكل على الله هو تفويض الأمور كلها إليه سبحانه وتعالى، هو التسليم له، وعدم الاعتراض، تفويض الأمور إليه سبحانه وتعالى، أرأيت لو كان ولد عاجز، مغلوب على أمره، ضعيف، لا يستطيع للأمور تصريفاً، ولا لشؤونه تدبيراً، وله أب قوي، قادر، حكيم، فماذا يفعل هذا الولد؟ إنه يفوض أمره لأبيه المشفق عليه، الرحيم به، لأنه يعلم أن قيام أبيه بتدبير أمره، هو أفضل من قيامه هو بتدبير أمر نفسه، لعجزه، وضعفه، فهو يرى أن تدبير أبيه له، خير من تدبيره لنفسه، وقيام أبيه بمصالحه، خير من قيامه هو بمصالح نفسه، فلا يجد أصلح من تفويض الأمور إلى أبيه، فكيف إذا كان هذا هو العبد، والله سبحانه وتعالى؟ فكيف ينبغي أن تكون الأمور عند ذاك؟ لقد ضربنا بهذا المثل الدنيوي، فكيف ينبغي أن يكون الحال، إذا كان الولد هنا هو العبد الضعيف، الذي لا يستطيع للأمور تصريفا، ولا تحويلا، لا حول له ولا قوة إلا بربه، فكيف ينبغي أن يكون اعتماده عليه؟ وكيف ينبغي أن يكون لجوؤه إليه؟ وكيف ينبغي أن يكون اطمئنانه إليه؟ العبودية: هي التوكل على الله في المقدور، والرضا به بعد حصوله، وتأمل دعاء صلاة الاستخارة، آخر الدعاء يقول العبد في دعائه: واقدر لي الخير حيث كان، ثم رضني به، فهو يتوكل على ربه في اختيار أحسن الأمور بالنسبة له، ثم يسأل ربه أن يرضيه بالنتيجة.

من معاني التوكل الأخذ بالأسباب الشرعية.

أيها الأخوة:

إن من معاني التوكل، ومستلزماته، وأركانه: الأخذ بالأسباب الشرعية، والدنيوية، التي شرعها الله، وأباحها لنا، فنحن نتوكل على الله، ونأخذ بالأسباب، ولكننا نفرق بين القلب، والجوارح، فالقلب معتمد على الله فقط، والبدن يقوم بالأسباب، القلب ليس فيه إلا الاعتماد على الله، والبدن يعمل بالأسباب، والجوارح تعمل بالأسباب، وتأخذ بالأسباب، والقلب ليس فيه إلا التوكل على الله، الأخذ بالأسباب سنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، الأخذ بالأسباب أمر واجب، ظاهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بين درعين يوم أحد، ولم يحضر الصف قط عرياناً، كما يفعله من لا علم له، ولا معرفة، واستأجر دليلاً مشركاً على دين قومه يدله على طريق الهجرة، لكن مأموناً، استئجاراً، وقد هدى الله به العالمين، وعصمه من الناس أجمعين، ومع ذلك يأخذ بالأسباب، وكان يدخر لأهله قوت سنة، وهو سيد المتوكلين، وكان إذا سافر في جهاد، أو حج، أو عمرة، حمل الزاد، والمزاد، وجمع أصحابه، وهم ألوا التوكل حقاً، وأكمل المتوكلين بعدهم، جمعوا هذه الأسباب أيضاً، كما أمرهم الله عز وجل، ففتحوا البلاد، لما جيشوا الجيوش، وعقدوا الألوية، فتح الله بهم بصائر القلوب، وعبد الله في البلاد بعد أن كانت مليئة بالشرك، وأشرقت شموس الحق على قلوب العباد، فملأ الصحابة العالم إيماناً بعد ما توكلوا على الله، وأخذوا بالأسباب، والناس في الأسباب على قسمين: منهم من ينكر الأسباب بالكلية، ويظن أن التوكل تمام التوكل لا يحصل إلا بالتخلي عن الأسباب، وهذا خطأ مخالف للسنة، كما ذكرنا الآن، فلا بد من الأخذ

بالأسباب؛ لأن هذه سنة الله في الكون، قضى الله أن يجعل لكل مسبب سبباً، ويقضي الله بحصول الأشياء عند حصول أسبابها، فإذا لم يأتي العبد بالسبب لم يحصل الشيء، ولم يقع، فإذا قضى الله بحصول الولد إذا جامع الرجل المرأة، فإذا لم يقربها لم يحصل الولد، وقضى بإنضاج الطعام إذا أوقدت النار، وقضى بحصول الشبع إذا أكل العبد، وحصول الري إذا شرب، وقضى بأن من الأسباب إلى الحج، والعمرة، قصد مكة بالسفر، وركوب الطريق، فإذا جلس في بيته لم يصل إلى مكة، وقضى بدخول الجنة إذا أسلم العبد، وعمل الصالحات، فإذا لم يسلم العبد، ولم يحصل الصالحات لم يدخل الجنة، وهكذا جعل لكل شيء سبباً، فهل يقول عاقل إنني سأرزق بالولد حتماً إذا قضى الله لي ولد، سأرزق به حتماً ولو لم أتزوج، لا يمكن أن يكون ذلك أبداً، أو يقول: إذا قضى الله لي بالحج سأحج، ولو لم أسافر، وأركب الطريق، لا يمكن هذا الحال البهائم أفقه منه؛ لأن البهائم تسعى للسبب، وتمشي للمرعى، وتأكل لتشبع، وهذا يقول: لا أفعل شيئاً من الأسباب، فالأسباب سنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، الأخذ بها سنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ولكن أيها الأخوة: هل يجوز أن نتوكل على الأسباب، ونعتمد عليها، ونظن أن الشيء سيحصل ولا بد، إذا اتخذنا الأسباب؟ كلا، وإنما لا بد أن يكون التوكل على الله هو الذي يكون عماد القلوب؛ لأن الأخذ بالأسباب وحدها فقط، والاعتماد عليها شرك، شرك ينافي التوحيد، ولذلك فإن العبد إذا أخذ بالأسباب، فوض الأمور إلى الله، قبل السبب، ومع الأخذ به، وبعده، وإذا توكل العبد على السبب، لو كان جيش، أو مذاكرة دراسية، أو مال حصله، وجمعه، فاتكل عليه، فإن الله يخذله، ومن توكل على غير الله بقلبه، توكل على الشيء بقلبه، توكل عليه، ولو بمقدار شعبة من القلب، فإن توكله على الله ينقص بمقدار هذه الشعبة، فإذا صارت شعب القلب كلها متوكلة على غير الله، فإن التوكل على الله يزول من قلبه بالكلية، ولكن العبد المؤمن يأوي إلى الله، ويتوكل عليه، ولا يتوكل على أحد غيره، مثل الطفل الرضيع الذي لا يأوي إلى شيء إلا ثدي الأم، لا يعرف إلا ثدي الأم، هداه الله إلى ثدي الأم، فهو لا يعرف الطريق إلا إليه، وهو أعمى لا يبصر أول الولادة، لكن إلى ثدي الأم فقط، فإذن لا بد أن نجرد أنفسنا من التوكل على الأسباب فقط، نأخذ بها، ولا نتوكل عليها، ولا بد أن يكون لدينا حسن ظن بالله، لأنك إذا أحسنت الظن به، توكلت عليه، وإذا أسأت الظن به، وقلت: لن ينصرني، لن يحميني، لن يجيرني، فإنك لن تتوكل عليه.

أيها الأخوة:

التوكل على الله في جميع الأشياء، صغيرها، وكبيرها، هو دليل المسلم، وهو منهجه دائما وأبدا، قيل لبعض الفقراء، وكان يذهب في السفر، ويصطحب معه إبرة، وخيط، وركوة، ومقراض، فقيل له: لأي شيء تصطحب هذا، فقال: هذا لا ينقض التوكل، لأن الله فرض الله علينا فرائض، والفقير قد لا يكون له إلا ثوب واحد، فربما تخرق، فإذا كان ليس معه إبرة، وخيط، تبدو عورته في الصلاة، وهذه الركوة أستعين بها في الوضوء، والطهارة، وهذا المقراض أطبق به سنن الفطرة، وهكذا، فنحن نستخدم الأسباب في الأشياء الشرعية، نستخدم الأسباب في المجالات الشرعية، ولا نستخدم الأسباب في المجالات غير الشرعية، ولكن هنا نسأل سؤالا فنقول: كيف يكتشف المسلم أنه معتمد على الله، أو على الأسباب فقط؟ لأن الناس يقولون: نحن متوكلون على الله، ونعلم هذا الكلام

الذي تقوله أنت، لكن كثيرا منهم، توكلهم زائف، فكيف يكتشف العبد ذلك؟ يكتشف ذلك إذا انقطع السبب، ولم يحصل الشيء الذي كان يريده، فهل يحضره بثه، وهمه، وحزنه، ويقنط، وييأس، أم لا؟ هب أن إنسان زرع زرعاً، وبذر البذر، ورشه بالماء، وسمده، وحصنه ضد الآفات، وقال أنا توكلت على الله، حصل أن جاءت آفة سماوية، وأخذت الزرع، فماذا يكون حال الشخص هنا؟ إذا رضي بهذا المقدور الذي حصل، وقال الحمد لله على كل حال، أنا أخذت بالسبب، وما قدره الله كان، والحمد لله لك يا ربي، هذا ابتلاء وأصبر، هذا كان توكله فعلاً صحيح، لكن إذا نزلت الآفة السماوية، وأتلفت كل شيء، فيأس، وقنط، واهتم، واغتم، وحصل له من جميع أنواع اليأس، والقنوط، والانهيار، والإحباط، فهذا يعني أن توكله كان غير صحيح، وأن التوكل على السباب فقط كان، وهذا نفس المثال في الدراسة، والآن نحن على أبواب الامتحانات للطلاب، فمنهم من يذاكر، ويجتهد، فكيف نقول له أنت معتمد على المذاكرة أم على الله؟ هل هذا مجرد سبب لا بد أن تعمله فعملته؟ أم أنت متوكل على الدراسة؟ فنقول له: تكتشف ذلك لو لم تأتِ علامتك كما تريد، فهل أنت راضٍ بالقضاء، والقدر، وأنك اتخذت الأسباب، وتوكلت على الله، والله لم يرد لك هذه النتيجة؛ لحكمة عنده سبحانه وتعالى، أم أنه بدأ يلعن الساعة، والزمان، ويحصل له من اليأس، والقنوط أمور كثيرة.

أيها الأخوة:

الكلام عن التوكل كلام طويل، ولعلنا نتابع الموضوع إن شاء الله، ولكن نقول: التوكل على الله يفيدنا جدا في حفظ الأمور، حفظ أنفسنا، انظر إلى دعاء السفر: ((اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل))[رواه مسلم1342]. يخرج الإنسان مسافراً، لديه زوجة، وأولاد في البيت، يخاف عليهم من أشياء كثيرة، وماذا يقول؟ ((اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل))[رواه مسلم1342]. أي: جعلتك خليفة على أهلي، ترعاهم، وتحفظهم يا ربي، فينطلق المسافر وعنده نوع من اليقين، والإيمان، بأن الله خليفته في أهله، وأن الله سيحفظ أهله، وقد رحل هو فيدعهم في شيء من الطمأنينة في نفسه، يحس بها نحو ترك أهله، وقد ذهب بعيداً عنهم، والله إذا استودع شيءً حفظه، ولذلك أنظر في توكل يعقوب عليه السلام، أمر بالأخذ بالأسباب {وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ}(سورة يوسف67). ربما حتى لا تصيبهم العين، والناس يرونهم أحد عشر شخص، أو عشرة أشخاص يدخلون مع بعض بهذه الحلية، وهذه الجِمال، والجَمال، أو أنه مثلا أراد ألا يشعر أهل المدينة أنهم يدبرون مؤامرة مثلا، فتلتفت إليهم الأنظار، ولكن يعقوب لا يغني عنهم من الله شيء، لو حصل لهم شيء، لو حصل قدر الله عليهم لا يغني عنهم من الله شيء لكن يقول يعقوب: {فَاللّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}(سورة يوسف64). فالله خير حافظاً، ولذلك أيها الأخوة: هذا الكلام مهم جداً في الأخطار، مهم الآن جداً خشية وقوع الأشياء، والحروب، إلى آخره، فنحن نتوكل على الله عز وجل، في حفظ أنفسنا، وأهلينا، وبيوتنا، وبلدنا، وجميع ممتلكاتنا، وأرواحنا، وهكذا، وسأل الناس، ولا يزالون يسألون، ماذا نفعل لو حصل شيء إذا خرجنا من مكان الخطر؟ نقول: إذا حصل شيء اخرج، ولم يقل لك أحد ابق في المكان، وأنت ترى الشيء قد حصل فعلاً، وعند ذلك لا يكون هذا من التولي يوم الزحف، ولا يكون هذا إثم، ولا يكون هذا سوء مطلقا،

ولكن الإرجاف، والبلبلة التي تحصل من غير وقوع شيء، هذه هي المشكلة، وهذا هو الذي قلناه، مراراً، وتكراراً.

يأيها الناس: لا ترجفوا في البلد، لا تنشروا الشائعات، ولا تثيروا الاضطراب، توكلوا على الله، إن الله يحفظكم، توكلوا على الله، إن الله يكون معكم، والمنية ستأتي ستأتي، قالت امرأة لرجلها: لا بد أن نخرج من البلد الآن، لا يمكن أن نبقى في البلد، إن الحرب و... إلى آخره، المسكين فصل من عمله، وصفى ممتلكاته، وأخذ الأولاد من المدارس، وأخرجهم منها والامتحانات على الأبواب، يوجد أناس حصل معهم هذا فعلا، قالوا: لا يوجد حجز، لا بد الآن أن نستعجل ونمشي، امتحانات الأولاد، لا داعي للامتحانات، نأخذ الأولاد، يا أخي مهلاً، تعقل، إذا أردت أن تتخذ قراراً اتخذه على أساس، ما حصل شيء إلى الآن، اجلس، وإذا حصل شيء امشي، ولم يقل أحد لك لا تمشِ، أو ستأثم إن مشيت لو صار شيء، فلما ذهبوا في الطريق، وصاروا بقرب الرياض، حصل عليهم حادث، فماتت المرأة في الحادث، التي كانت تقول للزوج: اخرج، اخرج الآن، لا يمكن أن نصل، اخرج، اخرج بناء على أي أساس، إذا كنت ستخرج، اخرج على أساس يا أخي، حصل شيء اخرج، نعم، وإننا –إن شاء الله– إذا توكلنا على الله أيها الأخوة، إننا لمحفوظون بإذن الله، ونقول للذي كان يريد أن يأتي بعمرة، اذهب وأتِ بعمرة، والذي كان يريد أن يصل رحمه، اذهب وصل رحمك، ليس هذا التولي يوم الزحف، لكننا نقول لهؤلاء الناس، الذين يعتمدون على الإرجاف، ويخافون، يأيها الناس: لا، تدخل البقالة يقول لك هذا البائع، يا شيخ يوجد حرب أم لا؟ صاحب المطعم يوجد حرب أم لا؟ خياط الهندي يوجد حرب أم لا؟

أيها الأخوة: فعلاً نحس بخواء الناس، الإيمان إذا ذهب من القلوب يعقبه هذا الخوف الشنيع، ولا حول ولا قوة إلا بالله، والكلام كثير، والوقت لا نريد أن يطول عليكم، لكن أيها الأخوة: لقد نسينا التاريخ الهجري في هذه الأيام، وتعلق الناس بشهر يناير، أو جانيوري، وصار الناس يعدون إلى خمسة عشر جانيوري ، ولو سألتهم فقلت: كم اليوم جماد الثاني؟ ما يدري، لكن كم جانيوري؟ حافظ التاريخ، ولولا أن جعل الله لنا الهلال، الذي نعرف به شهراً انتصف، أو بعد النصف، أو قبل النصف، ولكننا نوصي أنفسنا جميعاً، بالتوكل على الله حق التوكل، وترك المعاصي، والفرار إلى الله لا إلى غيره، والتوكل على الله لا على غيره، ونسأله سبحانه وتعالى أن يقينا الشرور في أنفسنا، وأهلينا، وبيوتنا، وبلدنا، وممتلكاتنا، وأن يحفظنا وإياكم بحفظه، فهو خير حافظا وهو أرحم الراحمين.

أيها لأخوة:

إن توكلنا على الله عز وجل هو الكفيل بأن ينقذنا، وبالمناسبة فإن التوكل على الله سبب عظيم من أسباب الحفظ، وسبب عظيم لدرء العذاب، ودرء الفتنة، والشر، التوكل على الله، هو أيضاً سبب شرعي، ينجو به العبد من كل شيء.

قصة فلم انتشر في بعض البلدان العربية والتنبيه على ذلك.

أيها الأخوة: ومن الأشياء التي ترتبط بهذه الأزمة، وأنبه عليه بشيء من الاختصار، فلمٌ أخبرني عنه بعض الإخوان، أنه قد انتشر، ودخل كثير من بيوت بعض البلدان العربية، وأنه أيضاً قد وصل إلى كثير من الناس هنا،

قصته باختصار: عراف نصراني، تنبأ بنبوءة قبل حوالي خمس مائة سنة، أو أقل، يمكن في عـــام **1564**م، هكـــذا عرضوها في الفلم، كما قيل لي، وأنه تنبئ بسقوط دول، وقيام دول، ومجيء ملوك، وخروج إنسان يخـــرج مـــن الشرق، وحروب عالمية، وصواريخ إلى آخره، وتدمير مدن، ونحو ذلك، وخروج هتلر، ونابليون، ومن بعـــدهم، وأن هذا الفلم توقفت نبوءاته عند عام كذا، وكذا، وأن حرباً عالمية ستقع في عـــام **1994**م إلى آخـــره، مـــن الأشياء التي أنا الآن لا أحفظ تسلسلها، ولم أشاهد أنا هذا الفلم، ولكنني أنقل ما سمعته من الثقات، ممـــن رأوه، وهذا الفلم عليه ملاحظات: أولاً: أنه انتشر الآن في وقت الأزمة، والناس في وقت أزمة، مـــع الخـــواء الـــذي يعيشونه في قلوبهم، فإنهم يتعلقون بمصادر أخرى، بمصادر أخرى تتعلق قلـــوبهم، ومنـــهم العـــرافين، والكهنـــة، والمشعوذين، فتلقى هذه الأشياء رواجاً، ومثل هذا الفلم يلقى رواجاً؛ لأن الناس يخـــافون مـــن المســـتقبل، ولا يتوكلون على الله، فيريدون أي شيء يقول لهم ما المستقبل؟! يريدون أي شيء يقول لهم ماذا يوجد في المستقبل؟ فتنتشر هذه الأفلام، ونحن نعلم أنه لا يعلم الغيب إلا الله، نحن نعلم يقينا، من أساسيات عقيدتنا، أنـــه لا يعلـــم الغيب إلا الله، وأن هؤلاء الكهنة، لو صدقوا مرة فإنهم قد كذبوا تسعا وتسعين مرة، لأن الكاهن قد يلتقط الخبر مما يلقيه إليه العفريت، الذي يستمع من السماء فيكذب معها تسعة وتسعين كذبة كما قال الرســـول صـــلى الله عليه وسلم، ولكن الناس لا يتذكرون إلا هذا الشيء الذي حصل فعلاً، ويقولون: فلان يعلم الغيب فعلاً، النبوءة صحيحة فعلاً، الفلم واقعي، ثم إن هؤلاء اليهود الذين يكونون وراء كثير من هذه الأفلام، يحولون النصوص، – مثلاً نصوص هذا الرجل المتنبئ– لكي توافق الواقع، ويعملون عليها، والغرض من هذا الفلم مـــثلاً: إرعـــاب الناس في العالم ضد المسلمين، لأنه يتنبأ بأن الناس سيخرجون من الشرق من المسلمين، ويكون لهم قائد، ويكـــون معهم صواريخ، وتساعدهم قوى، ويحاربون، ويدمرون مدن في أوروبا، وأمريكا، وإلى آخره حسب مـــا يحكـــي الفلم، فالمقصود: هو إرعاب الناس في العالم ضد المسلمين، وهكذا، وستحصل حرب في عام كذا، وكذا، وأريـــد أن أنبه أيضاً، إلى أن بعض الناس –أي واحد– يمكن يتنبأ بأشياء، يمكن يفترض فرضيات، يمكن –أي واحد– أن يقول سوف يقع في عام كذا، أتنبأ حصول حرب في عام كذا، بعض الدلائل تشير إلى كذا، وكذا، فهـــل يعتـــبر الآن هذا الرجل علم ما في الغيب؟ وأنت ممكن تتوقع أشياء، بناءً على الواقع، فهل إذا وقعت صار أنك تعلم ما في الغيب؟ مثلاً: تأزمت العلاقة بين رجل وزوجته جدا جدا، فقلت: أتوقع الطلاق، ثم طلق الرجل زوجتـــه، أي أن هذا الرجل يعلم ما في الغيب؟ لا، فإذا كان الإنسان عنده نوع من الحدس، أو دراسة الأخبـــار، وتحليلـــها، وتوقع أشياء وحصلت، هذا لا يعني أنه يعلم ما في الغيب، وأذكركم بأننا منذ فترة طويلة، كتبت الجرائد، وتكلم الناس، أن القيامة ستقوم يوم الأحد القادم، أتذكرون ذلك، كثير منكم سيذكر ذلك، فهل قامت القيامـــة يـــوم الأحد المزعوم؟ ما قامت القيامة يوم الأحد المزعوم، ولذلك أيها الأخوة: فإننا نحذر من الاعتماد، أو الـــتفكير أن هذه الأشياء من الممكن أن تكون فعلاً قد وقعت، بمعنى أن الرجل يعلم الغيـــب، كـــلا، ولا يفـــوتكم ضـــحك المنتجين، ومروجي الأفلام، ومن يقف وراءهم، من الذين يريدون الكيد لهذه الأمة، فاتقوا الله وجردوا قلـــوبكم، من التعلق بأخبار الكهنة، والعرافين، وثقوا بأنه لا يعلم الغيب إلا الله.

أيها الأخوة: التوكل على الله عز وجل الذي هو صريح الإيمان، التوكل على الله سبحانه وتعالى الذي هو المعتمد والملجأ الذي ندخل فيه، التوكل على الله عبادة القلب لا تقوم إلا بالقلب، قوتها من قوة الإيمان، وضعفها من ضعف الإيمان، والله سبحانه وتعالى جمع بين العبادة والتوكل فقال: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} وقال: {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ}(سورة هود123). وجمع بين الإيمان والتوكل فقال: {قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا}(سورة الملك29). {وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}(سورة آل عمران122). وقرن بين الإسلام والتوكل في قول موسى لقومه: {فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ}(سورة يونس84). وجمع بين التقوى والتوكل فقال: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا}(سورة الأحزاب1). {وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا}(سورة الأحزاب48). {وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا}(سورة الطلاق2). وجمع بين الهداية والتوكل فقال عز وجل: {وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا}(سورة إبراهيم12). فيتبين لك أيها المسلم: عظم هذه العبادة، وهي التوكل على الله، كيف قرنت بالإيمان تارة، وبالإسلام تارة، وبالعبودية تارة، وبالتقوى تارة، وبالهداية تارة، دلالة على عظم هذا العمل القلبي –التوكل على الله سبحانه وتعالى– التوكل على الله: هو الاعتماد على الله سبحانه وتعالى في حصول المطلوب، وزوال المكروب، مع فعل الأسباب المأذون فيها شرعا، هذا هو تعريفه لأهل الإيمان، والتوكل: منه ما يكون توكل عبادة، وهو الاعتماد المطلق على الشيء، أو على الشخص، أو على الجماعة، أو الجيش، ونحو ذلك، بحيث يعتقد أنه بيده مقاليد الأمور، وأنه يجلب النفع، ويدفع الضر، وهذا شرك أكبر مخرج عن الملة، إذا اعتمد الإنسان فيه على غير الله، أو توكل فيه على غير الله، من ظن أن شخصاً، أو جماعة، من ظن أن شيئاً غير الله بيده مقاليد الأمور، أو يصرف الأمور، أو يدفع ويمنع، أو يجلب وينفع، فإن هذا التوكل شرك بالله، توكل على مخلوق شحاذ يسأل شحاذاً، ومن أنواعه: الاعتماد في الرزق، والمعاش، على شخص، أو هيئة، مثل الاعتماد على الجهة التي تصرف الراتب، بحيث تكون عند الشخص أكثر من مجرد سبب، فينصرف قلبه إليها، ويتعلق بها، ويكون الشرك في قلبه بحسب ومقدار هذا التعلق، ولذلك كان العمل الحر على وجه العموم أحسن من الوظيفة في هذا الجانب، ومن التوكل ما يكون نوع تفويض في التصرفات، مثل التوكل على شخص في بيع، أو شراء، أو نكاح، أو طلاق، وهذا توكيل، وهذا جائز إذا كان مجال التوكيل فيه جائز، لأن الموكل هو الأعلى، وبإمكانه أن يسحب الوكالة لو شاء، فينبغي أن نحذر يا عباد الله: من أنواع التوكل المحرمة، سواء ما كان شرك أكبر، اعتماد على أشخاص، أو أشياء، واعتقاد أنها تجلب الضر، وأنها هي التي تصرف الأمور، وما تشاء هذه الأشياء، أو هذا الشيء، أو هذه الجماعة يكون، وما لم يشاءوا لم يكن، هذا شرك أكبر، والاعتماد على شخص في جلب رزق، وتعلق القلب به، والتوكل عليه، نوع من الشرك، والتوكل على أشخاص في الأشياء المحرمة، كالسرقة، والرشوة، أمور محرمة أخرى،وأما التوكل على الله: الذي هو تفويض الأمور إليه، والاعتماد عليه، والالتجاء إليه، والاعتقاد أنه هو الذي يضر، وينفع، وأنه هو مالك الملك، لا ملك إلا الله، ولا مالك إلا الله، هو الذي يصرف الأمور، بيده الخير وهو على كل شيء قدير، ولذلك فإن الله يكفي عباده المتوكلين عليه، فلما أعلن مؤمن آل فرعون إيمانه، وأعلن إسلامه، ودعا قومه إلى الله، وآزر

موسى، فماذا هو الظن بقومه أن يفعلوا به؟ لا بد أهم سيؤذونه، وسيقتلونه ربما، ولذلك قال هذا الرجل المؤمن في ختام كلامه لقومه المشركين: {وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ}(سورة غافر44). فماذا حصل؟ قال الله بعدها: {فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا}(سورة غافر45). لأنه فوض الأمر إلى الله، واعتمد على الله، وحقيقة التوكل أيها الأخوة: اعتماد القلب على الله وحده، فلا يضره مباشرة الأسباب، مع خلو القلب من الاعتماد عليها؛ لأننا ذكرنا أن الله بحكمته جعل لكل مسبب سببا، وجعل لكل شيء سببا يؤدي إليه، فلذلك من أخذ بالأسباب، وتوكل على الله، فإذا لم يتعلق قلبه بالأسباب فإن هذا الأخذ بالأسباب لا يضر التوكل، وأما من قال: توكلت على الله، وهو معتمد على غير الله، يركن إلى غير الله، فهذا توكل لسان، وليس توكل قلب.

الأسباب من قدر الله. 56:37

وأما بالنسبة للأخذ بالأسباب، التي شاءت حكمة الله أن يخلقها، ويخلق ما تؤدي إليه، فإن الله خلق الأشياء، وفرغ من ذلك، وقدرها بأسبابها المؤدية إليها، ولما سئل النبي صلى الله عليه وسلم فقيل له: أرأيت أدوية نتداوى بها، ورقى نسترقي بها، هل ترد من قدر الله شيء؟ فقال عليه الصلاة والسلام الجواب الواضح الجلي: ((هي من قدر الله))[رواه الترمذي2065]. هذه الأسباب التي تأخذونها، هي من قدر الله، فإذن أنت لا تفر من قضاء الله إذا أخذت بالأسباب، وتوكلت على الله، وأنت لا تعارض القدر إذا أخذت بالأسباب؛ لأن أخذك بالأسباب المشروعة –طبعاً– هو من قدر الله، ولذلك قال عمر لأبي عبيدة: "نفر من قضاء الله إلى قضاء الله، ومن قدر الله إلى قدر الله" ولذلك فإن المؤمن يتوكل على الله، ويأخذ بالأسباب، ونحن في هذه الأزمة أيها الأخوة: يمكن أن يكون لدينا نوع من الأسباب، التي يمكن أن نأخذ بها في بعض الحالات، ويمكن ألا يكون، ولذلك فالعبد يتوكل على الله سواء استطاع أن يأخذ بالأسباب، أو لم يستطع، وقلنا: بأن إبراهيم عليه السلام لما قيدوه، ورموه في النار، ما كان يمكن أن يفعل شيء من الأسباب إلا التوكل على الله، فقال: "حسبنا الله ونعم الوكيل" فنجاه الله من النار، ولذلك فإن هذا النوع من التوكل، توكل الاضطرار، والإلجاء، بحيث لا يجد العبد ملجأ إلا التوكل إذا ضاقت عليه الأسباب، وضاقت عليه نفسه، وظن أن لا ملجأ من الله إلا إليه، فإن الفرج، والتيسير يكون عاقبته بإذن الله، وهذا محله إذا حدث شيء فضاقت عليك الأمور، ولم تستطع أخذاً بسبب، ولا مهرب، ولم تجد ملجأ، ولا مغارة، فليس إلا الله عز وجل، فإنه يكفيك إذا أحسنت التوكل عليه في تلك الحالة، وكم من أشخاص تعرضوا للهلاك المؤكد، فتوكلوا على الله فنجاهم، وكم من أشخاص دخلوا في حوادث، وجرت عليهم أمور، فنجاهم الله عز وجل، وكان لا يظن أنهم ينجوا، فالعبد إذا أحسن العبادة في التوكل، كفاه الله ما أهمه، وأنت ترى أحياناً سيارة مصدومة، تعرضت لحادث فتقول: من شكل السيارة لا يمكن أن يكون السائق قد نجا، ومع ذلك تجد السائق قد نجا، وهذا دليل على أن الله سبحانه وتعالى يكفي عباده، وأن الأسباب ليست كل شيء، وأن الحسابات الدنيوية ليست هي كل شيء، وأعيد وأقول أن الحسابات الدنيوية ليست هي كل شيء، ولذلك الكفرة لا يعرفون شيء غير الحسابات الدنيوية، فلذلك تجد أحدهم إذا حصل عنده فشل في السبب، يأس، وقنط، وأحبط، وأسقط في يده، وتراهم حتى في الأفلام التي ربما يراها البعض، إذا حصل فشل في شيء قال:

اللعنة، إن السلاح لا يعمل، لا يقول إلا اللعنة، ليس عنده شيء، قلبه فارغ من ذكر الله، ومن التوكل على الله، فلا يقول إلا كلمة اللعنة، وأما التوكل الذي يكون معه الإمكان بالأخذ بالأسباب، فالواجب الجمع بين التوكل، والأخذ بالأسباب، وهذا توكل الاختيار، فإن كان السبب مأموراً به، فلا بد من الأخذ بالسبب، كما جعل الدخول في الإسلام سببا للوصول إلى الجنة، وأما من عمل بالسبب، وترك التوكل على الله، مثل الأمور الدنيوية، فإن بعض الناس يأخذون بالأسباب، ويتركون التوكل، فعملهم مذموم، وحابط، والله قد ينتقم منهم في الدنيا قبل الآخرة، وبعض الناس قد يأخذون بأسباب محرمة، لا يجوز الأخذ بها شرعا، فهنا يجب عليهم أن يتركوها، وإذا لم يجدوا شيئاً، يتوكلوا على الله سبحانه وتعالى، وإذا كان السبب مباح، فعليك أن تنظر أيها المسلم: هل قيامك بالسبب يضعف التوكل؟ أو يذهبه؟ فإذا كان قيامك بالسبب يضعف التوكل، أو يذهبه، فلا تأخذ به، وتركه أولى، فإن أضعفك الأخذ بالسبب، وفرق عليك قلبك، وشتت همك، فإنك تتركه، وأما إذا لم يضعف توكلك، ولم تشعر أن قلبك تعلق به، فخذ به، وهذا فرق دقيق ليت الناس يدركونه في مسألة التوكل، والأخذ بالأسباب، والتوكل على الله يكون قبل الأخذ بالسبب، ومع الأخذ به، وبعد الأخذ به، ولذلك فإن العبد لا يمكن أن يفرغ قلبه من التوكل أبداً، ولنأخذ مثالاً على ذلك: المجاهد الذي يقاتل في سبيل الله، يتوكل على الله في تجهيز سلاحه، ويتوكل على الله عند استعمال السبب، وعند إطلاق السلاح، ويتوكل على الله بعد إطلاق السلاح في أن يصيب هذا السلاح المقتل من العدو، وأن هذه القذيفة لا تصل إلا إليهم، فتنكل بهم، فيكون التوكل على الله قبل الأخذ بالسبب، ومع الأخذ بالسبب، وبعد الأخذ بالسبب، التوكل على الله عز وجل مفيد جداً أيها الأخوة، التوكل على الله سبحانه وتعالى يكفينا أموراً كثيرة، وقد ذكرنا فرق ونعيده بين الذي يأخذ بالأسباب، ويقول: أنا متوكل وليس بمتوكل، كيف يكتشف نفسه؟ من العلامات: أن هذا السبب لو فشل، ولم يعمل السبب، وتخلف وقوع أثره، فإذا كان الرجل متوكل على الله لا يهتم، عمل بالسبب وما حصلت النتيجة، لا يهتم، ولا يغتم، وأما إذا كان متوكل على السبب فقط، دون الله، أو متوكل على السبب مشركاً به مع التوكل على الله، فإن هذا الرجل لو تخلف العمل بالسبب، ولم ينفع السبب، يصاب بالإحباط، والانهيار، ولا يستطيع أن يعمل شيء، ولنضرب لكم مثالاً: لو أن رجلاً مثلاً عمل مخالفة مرورية غير مبالي بالنتيجة، لماذا؟ قال لأنني أعرف فلان الفلاني في المرور، لو وصلت إليه المعاملة سيساعدني، فهو معتمد على فلان الفلاني الذي في المرور، فهو يعمل الأشياء، فإذا قبض عليه، وذهب به إلى قسم المرور، فسأل عن صاحبه في قسم المرور، فقالوا: إنه مسافر في انتداب، فماذا يحصل له؟ إحباط تام؛ لأنه معتمد، ومتوكل على هذا البشر، وعلى هذا المخلوق، وهكذا كل من يعتمد على مخلوق في حمايته، فإن الله سبحانه وتعالى سيعاقبه بهذا الاعتماد،؛ لأنه لم يعتمد على الله، فيجب علينا تجريد التوكل أيها الأخوة، وعلينا بالأخذ بالأسباب كما أمر الله، نسأل الله السلامة، والعافية، والتوفيق، والسداد، والحفظ، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم،

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، وأشهد أن محمد عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

من فوائد التوكل أن الله يكفيك همك وتزداد به إيماناً.

أيها الأخوة:

في خضم هذه الأزمة وفي اشتداد هذه الأحداث، وفي غمرة المخاوف التي أصابت البشر بالهلع، لا بد أن يتم التركيز على هذا الأمر، وهو التوكل على الله عز وجل، فمن فوائد التوكل على الله: الفائدة الأساسية أن الله يكفيك همك، ويذهب عنك ما تخشى منه، وتزداد إيمانا، وتؤجر بالتوكل أجراً تجده عند الله يوم القيامة، وبالإضافة إلى ذلك فإن التوكل ينفع عند عدم الأسباب كما قدمنا قبل قليل، وبالإضافة إلى ذلك فإن التوكل على الله ينفع إذا كان السبب ضعيفاً، فأحياناً يواجه الإنسان قوة كبيرة لا يمكن أن ينجو فيعمل سبب بسيط، وينجيه الله بهذا السبب إذا توكل على الله، ومن فوائد التوكل: الخلوص من الهم الذي يحصل في مسألة الحسابات الصعبة، وأقول لكم مثالاً عمليا على هذا: إن بعض الناس الذين يقرءون في أنواع الأسلحة الكيماوية، والغازات، والسموم، والأسلحة الفتاكة، المتفجرة، إلى آخره، يصابون بالهلع، ويحسبون حسابات كثيرة جداً، ويعملون أموراً في غاية التعقيد، والدقة، ومع ذلك فإنهم يصابون بالهم؛ لأنهم لم يتوكلوا على الله، قال أحدهم مثلاً: إذا كان الصاروخ يحمل رؤوس متفجرة، فإن عليك ألا تبقى في الطابق العلوي؛ لأنه معرض للقصف أكثر، فتنزل إلى الأسفل، وأما إذا كان الصاروخ يحمل رؤوس فيها غازات، ومواد كيماوية سامة، فعليك أن تصعد إلى الأعلى؛ لأن الغازات تتكثف، وتنزل إلى الأسفل، وأحسن واحد من الناس بيته مكون من طابقين أليس كذلك؟ فهو إذا صعد في الأعلى سيكون معرض للصواريخ المتفجرة، وإذا نزل إلى الأسفل سيكون معرض للصاروخ إذا كان يحمل غازات، فأين تذهبون؟ ويحصل الهم عند الناس، إذا صرنا فوق بالمتفجرات، وإذا صرنا تحت بالغازات، مساكين فرط أمرهم، ويحصل الهم، والغم، ويقولون: كيف نعمل، كيف نعمل، ليس هناك توكل على الله أيها الأخوة، ولذلك فإن هؤلاء الناس يعيشون في هم، وغم، وينامون بالهم، ويستيقظون بالهم، ويحلمون بالصواريخ، والمتفجرات، والكوارث؛ لأن قلوبهم خالية من التوكل على الله، يا أخي توكل على الله، وخذ بالأسباب، وإذا حدث شيء الجأ إلى الله، ينجيك الله، ولذلك من فوائد التوكل أعيد وأقول: الخلوص من هم الحسابات الصعبة، التوكل على الله يفيد في مسألة التخلص من هموم الحسابات الصعبة، وكذلك فإن التوكل على الله عز وجل يفيد عند حدوث الأمور غير المتوقعة، لأن الإنسان قد يعمل سبب ليدرأ شيء من جهة، فإذا به يأتيه من جهة أخرى، لم يحسب لها حساب، ولم يتخذ لها سببا، فالتوكل على الله يفيد أيضاً في هذا المجال، وكم حفظ لنا التاريخ حوادث من أناس ظنوا الخطر من جهة فجاء من جهة أخرى، قيل: أن رجلاً هرب من عدو له يطلبه، ويسعى في طلبه، حتى ألجأه الهرب للدخول، فكان قد أعد مكان يختبئ به مثل الغار، أو الجحر، أو المكان الذي أعده للدخول فيه عند حصول الخطر، فدخل فيه، فانطبق عليه الباب، وانسد، فلم يفتح من الداخل، فمات مختنقا،

وبقي كذلك، فهذا الذي ألجأه الهرب إلى هذا المكان، هذا ما حصل به، لكن مع ذلك لا بد من العمل بالأسباب الشرعية، وهنا يقول الناس هلا بينت لنا حكم تخزين الأطعمة؟ وحكم اقتناء الأقنعة الواقية من الغازات؟ وحكم سد فتحات النوافذ، والشبابيك، والأبواب؟ وحكم تجهيز السيارة للرحيل إذا أقتضى الأمر؟ وما حكم وضع غرفة في البيت داخلية فيها طعام، ومستلزمات ضرورية، ومذياع يعطيك التعليمات إذا حصل شيء إلى أخره؟ هل هذه الأشياء منافية للتوكل أم لا؟ إن المقدمة التي قدمناها في الخطبة الأولى هذه قبل قليل، هي التي يقصد من وراءها تجلية الحكم في هذه المسائل، فنقول أيها الأخوة: تخزين الأطعمة إذا كانت الأطعمة مباحة جائز، وشراء الأقنعة إذا كانت الأقنعة سبباً للوقاية جائز لأن القناع ليس حرام، ووضع طعام في البيت، أو غرفه مهيأة لا بأس به، وتجهيز السيارة، ووضع خزانات وقود إضافية مثلاً جائز، لا بأس به، لكن أين الأشكال؟ عندما يظن العبد أن هذا القناع هو الذي يجلب النفع، ويدفع الضر، يعتقد أن هذا القناع هو الذي يضر، وينفع، هنا الإشكال، وهنا لخطورة، وهنا الشرك بعينه، أما مجرد أن تأخذ القناع، وتضع الأقنعة في بيتك تحسبا لحصول شيء، فإذا صار شيء لبسته، فهذا لا محذور فيه شرعا، ولا يمكن أن يقول عالم، ولا عاقل: أن هذا أمر محرم أبدا، سبب من الأسباب خذه وأنت تعتقد أن الذي ينفع هو الله، وليس القناع، وأن القناع قد ينفع، وقد يتخلف النفع، قد ينفع وقد لا ينفع، فإذن عمل هذه الأشياء المباحة جائز، بشرط ألا نعتمد عليها دون الله، ونعتقد أن الله بيده الأمر، وأنه هو الذي يضر، وينفع.

ثانياً: أن نكون متعقلين في الأخذ بالأسباب، فبعض الناس يهربون وليس هناك داعي للهرب، ويقضي على مصالحه، ومعايشه، وحالته، واستقراره، وبيته، ويترك الأشياء كلها، ويمشي، ويهرب دون سبب، لا يوجد سبب ملجئ، ما حصل أمر يدعو للهرب، ومع ذلك يهرب، وهذا أمر مذموم، وشيء غير معقول، وكذلك الذين يخزنون الأطعمة بكميات كبيرة جداً، وبعض الناس الذين خزنوا الأطعمة في حالة الخوف الأولى –التي أسميها حالة الخوف الأولى قبل أشهر وهذه حالة الخوف الثانية الآن– لا زالت الأطعمة عندهم منذ ذلك التاريخ، لم تنقضِ بعد، فبعض الناس إذا أخذوا احتياطات لا يأخذونها بتعقل، ولذلك يحصل عندهم شيء من عدم التوازن في التصرفات، وتكون أشبه بتصرفات المجانين، فإذن خذ الأسباب، وتوكل على الله، وكن متعقلاً، ولا تسبب الإرباك، والفزع للناس، ولا تنشر الإشاعات، ولا تترك ديارك بدون سبب، فإذا كان عندك سبب فالحمد لله اذهب في عمرة، في صلة رحم، في زيارة، في فسحة مشروعة.

والسفر أنواع أيها الأخوة: سفر طلب، وسفر هرب، سفر طلب حج، طلب عمرة، طلب علم، طلب تجارة، طلب رزق، سفر هروب من عدو، كلها جائزة، لا بأس بها، وهي أنواع سفر الطاعة، أعلاها، وأكثرها أجراً، والسفر المباح أدناها، وهكذا، وكذلك أيها الأخوة: فإننا لا بد أن نتذكر أيضاً أن القوة لله جميعاً، وأن الله سبحانه وتعالى يحفظ عباده، وانظروا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته، انظروا إلى النبي صلى الله عليه سلم وصحابته كيف حماهم الله، وأنقذهم الله من شرور كثيرة، لما لجؤوا إليه سبحانه وتعالى، واعتمدوا عليه.

اللهم إنا نسألك أن تحفظ البلاد والعباد، اللهم إنا نسألك أن تقينا شرور أنفسنا، وشرور الخلق، اللهم إنا نسألك أن تحفظنا، وتحفظ أولادنا، وبلادنا، وبيوتنا يا رب العالمين، فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين، عليه توكلت لا إله إلا هو، حسبنا الله ونعم الوكيل، حسبي الله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون، هو الناصر، وهو المعين، وهو الحفيظ، وهو الحافظ سبحانه وتعالى، بيده الأمر لا بيد أحد من خلقه، هو الحي لا يموت والجن والأنس يموتون، وأوصيكم بتقوى الله في السر والعلن، فإنها من أعظم أسباب النجاة، ولا ننسى أيها الأخوة أن الصوم في الشتاء الغنيمة الباردة؛ لأنه يحصل الأجر والثواب، بغير كثير من المشقة والتعب، فلا تنسوا هذا الأمر في هذه الأيام رحمكم الله، وإذا سافرتم فتزودوا بالتقوى، فإنها خير زاد يأخذه المتوكلون على الله معهم مع زاد الدنيا، ويقدمونه على زاد الدنيا، واجعلوا أغراضكم مشروعة، ولا ترتكبوا محرمات، ولا محظورات.

إن الله يأمر بالعدل، والإحسان، وإيتاء ذي القربى، وينهى عن المنكر، والفحشاء، والبغي يعظكم لعلكم تذكرون، فذكروا الله العلي العظيم يذكركم، واشكروه على نعمه يزدكم، ولذكر الله أكبر، والله يعلم ما تصنعون.

وقوموا إلى صلاتكم.